ادب الاطفال
بين الحكاية الشعبية والابداع الادبي

أ.د. علي الحديدي

الكبار هم الذين يصنعون أدب الأطفال لكن الصغار هم الذين يكتبون له الخلود ، وأدب الأطفال قديم قدم الأمومة والطفولة للإنسان ، وعلى درب التاريخ الطويل للبشرية تناقلته شفاه الأمهات والجدات ميراثا للأجيال ، وتلقفته آذان الصغار إمتاعا ومؤانسة وتسلية ، ولتنوعه خمير الجماعة ليحقق كثيرا من مواقفه ويرسب الجانب الأكبر من مخازنه ، واحتفظت به ذاكرة الزمن ليسهم بنصيب كبير في نقل تراث البشرية وخبراتها من جيل إلى جيل .

وأدب الأطفال حديث حداثة القصة أو الأغنية التي تبثها اليوم براعم الأطفال في الأذاعتين المسموعة والمرئية ، أو تروبها المدرسات في فصول الدراسة ، أو يقصها الرواة في المخيمات والنوادي والرحلات ، أو تقدمها الطبيعة في كتاب ، أو تحكيها الأمهات والمربيات للصغار قبل النوم . ينسجون جميعا أدبا يمتع الأطفال [illegible] البهجة والسرور على قلوبهم ، وينقلهم بأجنحة الخيال إلى أصقاع [illegible] ، أو يحلق بهم في آفاق المستقبل البعيد ، أو يحملهم خارج [illegible] ، أو يطوف بهم أرجاء الدنيا ، أو يصلهم بواقع الحياة . ومن ذلك كله تزداد خبراتهم ، وتتسع مداركهم ، ويتوقون الى الوقوف على حقيقة البشر الذين يحيطون بهم ، ويهفون إلى معرفة العالم المحيط بهم ، ويتعرفون مشكلات الحياة ويسعون وراء اكتشاف أسرارها ، ويرغبون في معرفة أنفسهم وانتماءاتهم ، ويعودون مقابلة خبراتهم بخبرات الآخرين ، ليقفوا على الصواب والخطأ في مجتمعهم ونفسي سلوكهم بحثا وراء الرضا النفسي والاطمئنان الداخلي . ومن ثم يخرجون من دائرة الحياة الذاتية اليومية الضيقة إلى دائرة التعلم الواسعة ، فيدركون أن خبرات الماضي سبيل إلى فهم أعمق للحاضر . ومن هنا كان أدب الأطفال سبيلا قويا يعرف بيه الصغار الحياة بأبعادها الماضية والحاضرة والمستقبلة .

وأدب الأطفال في عصوره القديمة عاش عالة على التراث القصصي والأدبي للكبار ، صار في ظله يسترفد رفده ، ويستلهم نسيجه ، ويتخذ منه مصادر يغترف منها المادة والصورة والخيال . فتسللت لهم الخرافات والأساطير والملاحم وقصص الحيوان وحكايات الجن والسحرة ، وغير ذلك من القصص التقليدية والشعبية . وكلما تطور التفكير الأنساني وتطور بالضرورة فنه الأدبي ، تطورت معه حكايات الصغار لتصبح هي الأخرى جزءا من مادة الحياة ، ووسيلة اتصال أساسية للبشرية ، وسبيل الأجيال المتعاقبة لنقل الأفكار ، والقيم الروحية ، والمثل ، ومستويات السلوك ، والتقاليد . وصارت حكايات الأطفال كالجدول الصغير ينساب في موازاة النهر

التعليم من ذوي التيار يعيش بجواره ويستمتع من الحياة [١]

والسبب الرئيسي في عدم استقلال الأطفال في العصور الأولى يعبر عن حاجاتهم الفنية والعاطفية والنفسية هو فكرة المجتمعات الأنسانية عن الطفولة نفسها ، ذلك أنها لم تكن في رأيهم مرحلة وجود مستقله بذاتها أو مهمة في ذاتها بل كانوا يعتبرونها مرحلة انتقال تعبر بالكائن الآدمي الصغير إلى مراحل النضج وتحمل المسئولية في المستقبل . وكان يستهويهم ويسيطر عليهم التفكير في هذا المصير الذي يريدون أن يتخلص الطفل في وقت مبكر من العقلية الخاصة بهذه المرحلة ، ومن أجل هذا الهدف كانوا يحبذون عليه الراشد وسلوكه . وبهذا المعنى كانت الطفولة تنظر إلى الأطفال على أنه راشد [illegible] أكثر أو أقل نضجا أو أن ما يميزهم عن الراشد يرجع إلى النقص وليس إلى شيء بريء ، بل كان ينظر إليهم على أنهم راشدون غير [illegible] [٢]

ومن هنا لم تهتم الحضارات القديمة بالطفولة بالقدر الذي يتيح لها التعبير بالاتجاه الصحيح الذي تنشأ فيه . فكان الاسبرطيون من أقدم المجتمعات البدائية مثلا يتركون أطفالهم ليلة ميلادهم عراة على قمم الجبال ، حتى لا تعتاد على قيد الحياة غير الأصحاء الأقوياء الجديرين بأن يكونوا جنودا في جيش اسبرطة العظيم ، ثم ينشئونهم تنشئة عسكرية خشنة ، ليكونوا فرسانا غلاظ الأكباد في قتال الأعداء . ولم يعن الرومان في تنشئة أطفالهم بالمثل العليا بل تركوها وراءهم ظهريا ، واهتموا بالغايه العملية ، وكانت المنفعة عندهم هي غاية الحياة ، فنشأوا أطفالهم ليكونوا جنودا لامبراطورية روما العظيمة يفتحون البلاد ليسودوا العالم .

وفي الشرق كان الفرس يعلمون أبناءهم حتى السابعة - كما يقول هيرودوت - أمور ثلاثة ركوب الخيل ورمي السهام وقول الحق ، وبعد السابعة يسلم الطفل للدولة فتقوم بتأهيله في مجموعات ليصير جنديا في جيش هرمز الفاتح ، فأذا ما بلغ الخامسة عشرة تلقى حزام الرجولة وانخرط في سلك المحاربين [٣] . والعرب القدامى كانوا يبعثون بأبنائهم إلى الصحراء في اليوم الثامن من مولدهم مع مرضعات من البدو ثم لا يعودون بهم إلى أسرهم حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة ، وذلك لينهل الأطفال روح الحرية من الصحراء ، وليجدوا في هوائها وخشونة العيش فيها ما يسرع بهم إلى النمو الخشن ، وما يهيئهم الغلظة وتؤهلهم لحمل السلاح [٤] . وكانوا في الجاهلية يتعرضون للمأساة الكبرى وهي وأد هم خشية إملاق أو خوفا على البنات من العار .

والحدث البارز الذي غير كثيرا من مفاهيم المجتمعات القديمة نحو الطفولة وعدل في معاملة الأطفال هو ظهور الأسلام . ذلك أن تعاليمه وآراء علمائه

وشرعه كانت تطورا حقيقيا فى تاريخ الأطفال ، فقد جعل الأولاد زينة الحيـــاة الدنيا [٥] ، ونعمة كبرى يمن الله بها لتتسع بهم أكثر نفيرا [٦] ، وأضحى الصغار بدل الرغبة فى وأد هم قرة أعين [٧] ، وأحباب الله ، وريحهم من ريح الجنة ، وفرض التعليم على الأولاد والبنات [٨] ، ودفع الكبار إلى رحمة الصغار ورعايتهم حـــتى صاروا أكبادا تمشى على الأرض .

كذلك اهتم علماء المسلمين ومفكروهم بتربية الأطفال وتعليمهم وتنشئتهم التنشأة الاسلامية الصحيحة ومن أشهم بفكره من العلماء فى هذا المجال : محمـــد ابن سعيد بن حبيب التوخى القيروانى المعروف بابن سحنون (٢٠٢ - ٢٥٦هـ) ، وأبو الحسن على بن خلف القابسى القيروانى (٣٢٤-٣٨٨هـ) ، وأحمد بن محمـــد ابن يعقوب المعروف بابن مسكويه (٣٢٥-٤٢١هـ) ، وإخوان الصفا (القرن الرابع الهجرى) ، والشيخ الرئيس أبو على الحسين ابن عبد الله بن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ) وأبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى الأندلسى (ت ٤٦٣هـ) ، وحجة الإسلام محمـــد ابن أحمد الغزالى (٤٥٠-٥٠٥هـ) ، وبرهان الدين الزرنوجى (ت ٥٧١هـ) ، ومؤسس علم الاجتماع أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) ، وعبد الباسط ابن موسى العلموى (ت ٩٤٨هـ) [٩] وقد سجل هؤلاء وغيرهم من علماء المسلميـــن آراءهم المتفردة وأفكارهم المتميزة فى تعليم الصغار وتنشئتهم ، ودونوها فى كتابـات مستفيضة ، عالجوا فيها كثيرا من القضايا التعليمية ، والنفسية ، والسلوكيـــة ، والاجتماعية بمنهج متقدم فى عصره وعقلية سبقت زمانها ، فأقاموا وزنا كبيرا بين سعادة الدراسة وعمر الطلب ، وفرقوا بين تعليم الصغار وتعليم الكبار ، وأدركوا فائـــدة التبكير فى طلب العلم ، ودعوا إلى التعليم المتواصل وهو مايسمى بالتربيـــة المستمرة (Continuing Education) فقالوا بطلب العلم من المهـــد إلى اللحد ، ويحسن بالمرء أن يتعلم مادامت الحياة ، وعرفوا الصلة بين الجســـم والعقل ودعوا إلى الموازنة بينهما ، ودعوا إلى الرياضة البدنية ، وأوجبوا العطـــلات والإجازات توكيدا لراحة التلاميذ ، وأكدوا أهمية اللعب للطفل وحاجته إلى النشاط الجسمى ، ونادوا بالتدرج فى التعلم من السهل إلى الصعب ، وعنوا بميـــول الطلاب وقدراتهم وتوجيههم نحو الدراسات التى تؤهلهم لها ميولهم وقابليتهـــم ، وهو مايسمى اليوم بالتعليم المهنى ، ودعوا إلى ضرورة إرشاد الطالب وإعادة توجيهه إذا استبان خطأ اختياره فى البداية ، وهو ما يعرف باسم (Reorientation) وحددوا مراحل التعليم ، وبرامج الدراسة ، ومناهجها ومواقيتها ، وقرروا أثـــر التربية والتنشئة فى الأطفال لكنهم لم يهملوا دور الطبيعة الأصلية فعرفوا حـــدود التربية والاكتساب والتطبع ، وهو مايعرف بالحدود بين الوراثة والبيئة ، أو بيـــن الطبيعة والتطبع Nature and Nurture . فاختلاف الطباع لا يرجـــع

[illegible] التربية وحدها ، [illegible] والاستعداد [illegible] الفطرية [illegible] وغيرت كثيرا من [illegible] التربية الأوربية الحديثة التي كانت تعتبر في زمانها [illegible] جديدا في عالم تنشئة الأطفال .

واذا أمعنا النظر في هذه الأفكار الأساسية نجد بعضها وثيق الشبه بينها وبين الأسس التي قامت عليها التربية الحديثة في أوربا ، ومن هنا تبدو لنا أهمية التساؤل : ماذا لو قدر لهذه الأفكار التربوية الاسلامية أن تستأنف السير في حركتها التطورية بما تحمله من أجنة جديدة وبما تحتويه من أفكار واضحة ، وتلبي مطالب مواجهة متطلبات الحاضر واحتياجاته ومشكلاته ؟ اذا لاستطعنا أن نطور نظريات تربوية متكاملة قد تماثل أو تفاير من التربية الحديثة ، لكنها كانت بكل تأكيد ستطلق التفكير في عالمنا الحديث .

ويقدر هذا الاهتمام الكبير الذي أولاه العلماء العرب المسلمون بأدب الأطفال في تعليمهم ، فقد ازدهر في الدولة العربية الأسلامية كان أدبها ضخما وغنيا من جوانب الآداب . والمتتبع للسير الأدبية الطويلة منذ العصر الجاهلي وحتى مطلع عصرنا الحديث لا يجد أديبا واحدا ألف قصة أو حكاية ، أو أنشد قصيدة أو أغنية للأطفال خاصة ، مستهدفا امتاعهم والترويح عنهم أو ادخال السرور على نفوسهم على الرغم من التقدم العلمي والفكري والازدهار الأدبي والفني والحضاري الذي كانت تنعم به الأمة العربية الاسلامية لمدى ثمانية قرون كاملة ، وعلى الرغم من أن المنهج التعليمي للأطفال في التربية الاسلامية القديمة كان ضمن مقرراته القصص والشعر ، فقد كان على المؤدبين أن يرووا الأطفال ما سار من المثل وحسن من الشعر[11] ، ويعلموهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء[12] ، ويقصوهم بالخطب والمغازي[13] ، ويرقونهم الأخبار[14] ، ويضربوا لهم القدوة بأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار[15]

والذي يدعو إلى الدهشة حقا أن الأدباء العرب القدامى أسقطوا الأطفال من حسابهم وأهملوهم إهمالا كاملا فيما يقدمون من فنون أدبية ، على الرغم من فيض التراث القصصي الذي كان يزخر به المجتمع العربي نتاجا للعقلية العربية وقد منحت حظا موفورا من الخيال ، وأعطيت قدرة فائقة على صياغة المادة المحيطة بها قصصا جميلا ، وامتازت بالموهبة المبدعة التي تعيد تأليف القصص القديمة المتوارثة وتخرجها في ثوب يكاد يكون جديدا[16] ، والتي تستقبل الحكاية المنقولة إليها بحفاوة وتقدير ، وتتمرغها من جديد بمهارة ودربة ، وتضيف إليها بتشبعها بالروح العربية ، وتضفي عليها من موهبة الخيال والفن التي تتملكها ، فلا يمنع الطابع إلا أن ينسبها إلى العرب وينسى مصدرها الأول .

أما عن الحكايات الخاص بالعرب القدامى فقد وصلوا به الى حد الكمال والابداع(١٧)

كذلك لم يلق الجانب الرسمي من المجتمع بالا إلى الفن القصصي للصغار، فلم يقدره الرواة أو المدونون قدره ، ولم يسترع انتباههم من " أدب الأطفال " إلا الأغنيات التي كان الكبار يرقصون بها الصغار ، وحتى أغنيات الترقيص هذه تدخل في العالم الموسيقي للطفل لكنها لا تدخل في أدبه ، ذلك لأن معانيها وألفاظها - وهي فوق مستوى الأطفال - تصنفها في أدب الكبار ، فهي أغان عن الطفل وليست أغاني للطفل يمكن أن يغنيها بنفسه فيسعد بنغماتها وألفاظها ومعانيها معا . وما وصل إلينا من موضوعات التراث القصصي العربي التي يلفت بالمجتمع حد الرفاهية الفنية ، كانت جميعها لأرضاء الحاجات الفنية والعاطفية للكبار . فكتاب " كليلة ودمنة " مثلا برموزه السياسية والطائفية والشعوبية وحكاياته المركبة ، كتاب للكبار، وكذلك عشرات المصنفات التي ألفت على شاكلته ، و " ألف ليلة وليلة " سيد مصنفات التسلية وحكاياته المنزعة عن الجن والأساطير والمغامرات وأسفار البحار ، وقصصه السافرة عن الجنس ، وما فيه من الفانتازيا والنوادر التي أضحت العالم وأسعدته ، وما أضافه إليه كل عصر من روحه ، وما أسهم فيه كل قطر عربي من صبغته ، وما اشترك فيه من تراثه الشعبي وخياله ، قصد به إمتاع الرجل سيد المجتمع وتسليته .

وإذا كانت بداية أدب الأطفال ترجع في الزمان إلى أول الزمان فالراصدون لحركة مسيرته وأنتقاله وهجرته وتطوره مع الأجيال القديمة يلمسون ظاهرتين بارزتين جديرتين بالتسجيل :

أولاهما : لم يحظ " أدب الأطفال " من الحضارات القديمة بالتدوين أو الدراسة والاهتمام كما حظي أدب الكبار ، فقد اهتمت أكثر الحضارات القديمة بتسجيل تراثها الفني إلا أنها أسقطت من حسابها أدب الأطفال اللهم إلا في مصر القديمة أو حين يكون أدب الصغار متصلا بعمل من أعمال الكبار .

والثانية : لم يظهر لأدب الأطفال - في مسيرته القديمة الطويلة - فنانون متخصصون يبدعون في خلقه ، ويبتكرون في صيغه وأجناسه ، ويستقلون به بعيدا عن أدب الكبار .

ولعل السبب في إهمال أدب الأطفال وعدم تدوينه في التراث القديم هو تلك النظرة التي كان القدامى ينظرون بها إلى الطفل وهي أنه مجرد انتظار ليس لها في ذاتها وجود مستقل ومن ثم لم يفطنوا إلى الحاجات أو الميول الخاصة بها لاستبقائها بها وبأدبها . ولأن القدامى أنفسهم

لم يكتشفوا أهمية مرحلة الطفولة في مراحل سير النفسية ، كما أنهم لم يكتشفوا أهمية الطفل للبناء النفسي للفرد في مراحل سيره النفسية ، كما أنهم لم يكتشفوا أهمية الطفل في تكوين عوالم الشعر وخيالاته وربما عواطفه وحاجاته النفسية ، ولم يعيروه أي اهتمام ، فأهملوا تدوينه . وربما لم تعن الحضارات القديمة بتسجيله لأن جزءا كبيرا من هذا الأدب الشعبي وخصوصا ما يتعلق بالطفل لم يبدأ العالم في الاهتمام به إلا في القرن الثامن عشر .

ولم يكن لأدب الأطفال في عصوره القديمة قانون متخصص يتحكم في خلقه ويتحكم فيه ، لأن مجتمعات هذه العصور لم تكن قد عرفت للطفل أو المرأة مكان مستقل فيه ، ومن ثم اتجه الفنانون والأدباء في المجتمع يدورون في فلك يرضي الكبار ويتفوقون بعيدا عن التراث عنه ، ويحرصون على إرضائه اهتمامات الكبار وتسلياتهم الفنية والأدبية ، ولم يكن منهم فنا خاصا بالأطفال موجها إليهم بشخصيته المتميزة عن الكبار ، فقصة سندباد ، ومالك أربعين لصا من حلاق ، تؤلف ، ٣٦ قصة من ألف ليلة وليلة بينما لا تحكي لأطفالها من شهرزاد نفسها قصة واحدة ، وهذا الطبيعي الذي يجعل من " شهرزاد " شخصية أسطورية خاصة بالكبار ، وقد صحب هذه العوامل الفنية والنفسية أسباب أخرى أثرت على أدب الأطفال إشباعا لحاجاتهم الأخرى التي لم تكن موجودة في الأدب الذي كان يوجه لتسلية الأبناء .

وأمر آخر يصد بالأدباء عن الكتابة للصغار ، ذلك أنهم في أكثر العصور التاريخ كانوا يتجهون بفنهم الأدبي إلى البلاط وتصور السلطة ابتغاء الجاه والمال والصغير لا يعطي مالا ولا جاها ، وفوق ذلك كانت المجتمعات القديمة لا تحترم الذين يتعاملون مع الأطفال حقهم من التقدير ، بل كان ينظر إليهم بعين الاستهانة والسخرية وعدم الاحترام . وقد عير الحجاج بن يوسف الثقفي بأنه كان معلم صبيان في مقتبل عمره ويتقاضى أجره " رغفان المعلم " ومن الرواة من أنشد فيه :

أينسى كايب زمان الهـــــزال ... وتعليمه سورة الكوثـــــــر
وعيف له فلـــك دائـــــــر ... آخر كالقمر الأزهـــــــر

وقد أفاض الجاحظ ، ح من أمامي ، في الحديث عن حماقة معلمي الصبية بأنهم كانوا يملأون بالحكايات التي تدل على الحماقة قلة العقل وخطل الرأي ، وذكر من أشعار الحماقة " أحمق من هذا " وأنشد في واحد منهم :

ما [illegible] ... [illegible] الزاد لئيم الرضيـــــــع

وأنشد لأبي [illegible] :

خبز الطعام والبنان متفق واللون مختلف والطعم والصور(١٨) .

ويقول ياقوت الحموي في كتابه " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب "(١٩) عن الحرفة وصاحبها " غير مرّ وحرفة محتقرة " . ويبلغ أمر الاستهانة أن تردد بعض القضاة في قبول شهادة معلم الصبية . وقد عرا آدم متز Adam Metz كثيرا مما لحق بهؤلاء المعلمين من ضروب الاستهزاء والسخرية إلى التأثر بالروايات اليونانية الهزلية وكان المعلم فيها من الشخصيات المضحكة(٢٠) . وحتى لا يلحق بالأدباء ما لحق بمعلمي الصبية استنكفوا عن الكتابة للأطفال .

وأرى من ذلك كله أن الكتابة الأدبية للأطفال لم تكن حتى وقت قريب [illegible] بين الأدباء ، بل كان يظن أنها تنزل من قدر الأديب الفنان [illegible] على أفكار الناس أن الذين يكتبون أدبا للصغار هم من لا ترتفع بهم [illegible] إلى الكتابة للكبار ، ومن ثم خاف الأدباء على مجدهم الأدبي(٢١) [illegible] أدب الأطفال ، وأعرضوا عنه ، ونأوا بمواهبهم عن الإبداع فيه . وذلك ما دعا الشاعر الفرنسي الكبير عضو الأكاديمية الفرنسية شارلز بيرو Charles Perrault حين كتب أول مجموعة في العصور الحديثة من قصص الأطفال خاصة للأطفال عام ١٦٩٧ بعنوان " حكايات أمي الأوزة : Tales of My Mother Goos " أن يضع عليها اسم ابنه الصغير " بيرو دار مانكور "(٢٢) . والأديب الكبير على الرغم من شاعريته [illegible] وسمعته الأدبية المعروفة في عصره خاف على مجده الأدبي ، فلم ينسب مجموعة قصص الأطفال لنفسه ، لكن الأطفال الكبير على " حكايات أمي الأوزة " من [illegible] صغارا وكبارا ، وشهرتها التي طبقت الآفاق في فرنسا وأوروبا بعد أن ترجمت إلى لغاتها ، جعلت شارلز بيرو يراجع نفسه ، ويخرج للأطفال مجموعة أخرى بعنوان " أقاصيص وحكايات من الزمان الماضي " ويضع اسمه عليها هذه المرة . وبذلك بدأ عهد جديد في أوربا لم تعد فيه الكتابة للأطفال حطة في شأن الأديب ، ولا يخشون منها على مجدهم الأدبي ، بل أصبحت عملا أدبيا يفخر به الكاتب إذا كان العمل الأدبي ممتازا يقبل عليه جمهوره من الأطفال .

والمهتمون بأدب الأطفال إذا تتبعوه في مسيرته التاريخية ، ورصدوا - من [illegible] العالمي - ظواهره وحركة تطوره يجدون ثلاثة منعطفات تاريخية رئيسية أثرت تأثيرا كبيرا في توجيه هذه المسيرة ، ولعبت دورا فاعلا في حركة تطوره ، منذ بدايته وابتداعه كيانا أدبيا مستقلا واشتدادا إلى نضوجه وانتشاره وازدهاره ، ثم [illegible] إلى الآفاق التي وصل إليها في عالمنا المعاصر .

وأول هذه الشطحات ، حين آذنت شمس القرن السابع عشر بالمغيب ، وكتب الشاعر الفرنسي الكبير شارلز بيرو عام ١٦٩٧ للأطفال خاصة أول مجموعة قصصية بعنوان " حكايات أمي الأوزة " ، ومن حكاياتها: الجنية، وسندريللا ، والجمال النائم ، وذو اللحية الزرقاء ، والقط في الحذاء الطويل . وبهذه المجموعة بدأ ميلاد جديد لأدب الأطفال ، فالأقبال المنقطع النظير على قراءتها زاد من مجد كاتبها ، وأعلت من مكانته الأدبية شهرتها التي تجاوزت فرنسا إلى أوروبا ، ولكنك الحظر الوحشي المضروب على الكتابة للأطفال من الأدباء ، وطمأنتهم على سمعتهم الأدبية إذا ابتدعوا أدبا للصغار ، وبعثت فيهم نشاطا عجيبا فانطلقوا يبحثون وينقبون في الآداب الشعبية الأوروبية يستلهمونها ، أو يعيدون صياغتها ويضفون عليها طابعهم الفني ، ويبسطون أسلوبها ومعانيها لتناسب الصغار[١٣] ، يقرأونها أو تحكى لهم فتبعث فيهم روح المرح والمتعة ، وتخلب لبهم بألوان الخيالات المبهرة وتغتنهم بأحداثها الآسرة وأشخاصها الذين ينشدون إليهم قلوب الصغار فيحلقون وراءهم في عوالم جديدة يعرضون لهم فيها الحق في جماله ، والعدل في بهائه ، والصدق في روائه خلال ثوب من التصور والخيال . وأخذوا يبدعون أدبا جديدا للصغار ، يصلون مضمونه الشعبي بالتجربة الواقعية ، ليسعد الأطفال بفكرته الأنسانية وتالبه الجميل وعباراته الرشيقة ووميضات المرح التي تنتشر فيه ويشبع عواطفهم بصوره ، ويوقظ عقولهم بخياله ، ويغذي قلوبهم بومضات الخير والحق فيه ، ويعمق مداركهم عن طريق التسلية والترويح والمتعة .

من هنا يمكن القول بأن مجموعة " حكايات أمي الأوزة " - وقد أثارت في فرنسا والبلاد الأوروبية الأخرى ، وخاصة ألمانيا وانجلترا ، حركة جادة في أدب الأطفال سعدت بنتاجها قراءا كبيرا عانى منه الصغار زمنا طويلا - تعتبر أول مراحل التكوين الحقيقي لأدب الأطفال ، فقد أخذ يستقل عن أدب الكبار ، ويخرج من وصايته ، وينفصل تدريجا عن أحضان الآداب الشعبية للكبار ، لكن أدباء هذه الحركة كانوا ينظرون إلى الأطفال من منظور عام وكلي ، يضعونهم جميعا في نطاق موحد دون اهتمام بالطفولة كمرحلة مستقلة بذاتها، ومهمة في ذاتها، ومؤثرة بقوة في المراحل الحياة التالية لها ، ودون اعتبار للفروق الفردية أو فروق السن الزمنية أو الادراكي ، أو الفروق بين الطفولة نفسها ، وكان ذلك نتاج العصر وتفكيره عن الأطفال وقد سادت فيه التربية التقليدية التي تقوم على العنف القديم ذي النزعة العقلية الأدبية ، فأهملت النواحي الجمالية التي تثري حياة البشر ، وأهملت أثر البيئة الجميلة بالخطر ، وتشبث بالتعليم قبل أن تمض بالتجريب[١٤]

والنصف الثاني بعد الحرب العالمية الأولى ، ذلك أن أدب الأطفال في أوربا وأمريكا قد أخذ ينطلق في مسارة الصحيح ليدخل مرحلة الازدهار فسمى الشكل والمضمون ، واندفع في مسيرته بقوة لا تتوقف ، بل زادت ثراء مع الأيام . وقد ساعد هذا الازدهار عدة عوامل منها :

١ - تأصيل علم نفس الطفل في أوائل القرن العشرين ، بعد أن عكف علماؤه على دراسة الطفل دراسة منهجية منظمة ، وبذلك انفتح الطريق للمعرفة الصحيحة بالطفل ونفسه ، وتكون شيئا فشيئا " علم نفس الطفل " القائم على الملاحظة والتجربة ، والذي اكتشف مرحلة الطفولة كمرحلة مستقلة ، لها ميولها واهتماماتها وحاجاتها العادية والعاطفية ، ولها نوازعها ودوافعها المستقلة عن الكبار استقلالا تاما . وأصبح من مسلمات هذا العلم الجديد أن نفسية الطفل تختلف عن نفسية الراشد اختلافا كليا سواء في الدرجة أو المستوى أو الطبيعة ، وبذلك تغيرت النظرة إلى الطفل ، ولم يعد ينظر إليه كراشد مصغر ، بل كائنا مستقلا لنفسيته قواعدها وقوانينها الخاصة بها . ووجدت التربية في علم نفس الطفل منهلا ثرا ومصدرا غنيا تبنى عليه مبادئها وأسسها الحديثة . وأصبح المنزع النفسي الجديد في التربية والذي يمثل حجر الأساس فيه المربون بستالوتزي (١٧٤٦ - ١٨٢٧) ، وفروبل (١٧٨٢ - ١٨٥٢) ، وهربارت (١٧٧٦ - ١٨٤١) القاعدة المتينة للمذهب التربوي الحديث ، فوجه عنايته إلى تكوين الطفل تكوينا متكاملا متسقا بحيث لا تزيد معارفه وعلمه فقط ، بل يزداد معهما نضجه ونموه وتفتحه ، ويصبح أقدر على التفكير والتحليل . كذلك قدم علم نفس الطفل خدمات جلى للتربية حين درس تأثيرات مرحلة الطفولة الحاسمة في المراحل اللاحقة بعدها ، وفي بناء الإنسان وتكوينه ، وحين اكتشف مراحل الطفولة المختلفة وما تتميز به كل مرحلة من اهتمامات وميول وحاجات نفسية وعاطفية . وبذلك وضع الأسس السليمة لتربية ملائمة للنمو النفسي للطفل متمركزة حول اهتماماته وميوله وقابليته وطباعه ومقومات الشخصية عنده في كل مرحلة ، ومتجهة نحو تفجير هذا الاهتمام في نفس الطفل وجعله المدخل الأساسي لتعليمه وتكوينه .

وبفضل بحوث علماء النفس وجهود علماء التربية أصبحت الطفولة تعد مرحلة وجود مهمة في ذاتها ولذاتها ، والفهم العميق لهذا الإدراك الجديد للطفولة بنى داخل الأدباء الذين يكتبون للأطفال لونا من الحرية الواعية بنوع الأدب الذي يقدم للصغار ، فوضعوا نصب أعينهم

حين يكتبون اهتمامات كل مرحله وميولها وحاجاتها العاطفية و
ودوافعها الخاصة بها ورصيدها اللغوى ، ومقدرتها الأدراكية
فهم المعانى ، فكتبوا لها الأدب الذى يناسبها .

٢ - رغبة الكبار من الذين خلفتهم الحرب العالمية الأولى - بعد أن أتت على الأخضر واليابس ، وحصدت الملايين من الشباب - فى أن يبدأ العالم من جديد . والبداية الجديدة رصيدها الأطفال ، فاتجه الكتاب والفنانون اليهم بحماس شديد ، يقدمون لهم فيها أحسن للعالم الذى لم يحافظ الكبار على السلام فيه ، وليؤكدوا لهذه القلوب الغضة الرقيقة التى أزعجها الخوف والفزع من الدمار الذى حاق بهم - أن الحياة مستمرة وسيعيشونها الى أبعد أعماقها ، وعلى أيديهم تتجدد الحضارات ، وأدب الأطفال خير وسيلة تصل بها هذه الرسالة الى قلوب الصغار . ودارت المطابع بألوان شتى منه تغذى الجوانب الروحية والأنسانية والوطنية ، تبث فيهم الإيمان بالله والوطن والإنسان ، وتعيد للأطفال مافقدوه من الأمن والأمان .

٣ - تكوين المجالس والجمعيات والهيئات التى ترعى مصالح الأطفال ، واتجه بعضها إلى رعاية الجانب الثقافى والترفيهى فكان لها صلاحيات الرقابة ونقد كل مايتصل بالأطفال من مطبوعات[٢٦] ، وإعداد تقارير بصلاحيتها أو عدم صلاحيتها لهم والتزكية بالنشر أو التوصية بحجبها عنهم ، فأذا ماخالف الناشر التوصية بادرت فنشرت وجهة نظرها مع عرض للكتاب ونقد له . ومن هنا كانت هذه الجمعيات كالصفارة تنبه الكثير من المطبوعات التى تضر بالأطفال ، أو كالنذير تشير إلى الخطر الكامن للأطفال فى الكلمة المنشورة .

٤ - وساعد على الازدهار كذلك ظهور دور النشر المتخصصة فى طبع ونشر كتب الأطفال ، واكتشاف التكنيك الحديث فى صناعة الكتب ، وتقدم الطباعة والتصوير ، وانتشار المكتبات العامة ومكتبات المدارس ، وإقامة نواد للأطفال بمكتباتها وأنشطتها المختلفة .

هذه العوامل وغيرها أعطت أدب الأطفال دفعات قوية من التطور جعلت الأطفال يعيشون العصر الذهبى لأدبهم مستقلا عن أدب الكبار الذى أخذ يعانى الكآبة واليأس والتشاؤم حتى فى عصر السلام ، لما يراود الكبار من شك فى حياة أفضل لهذا العالم ، ولما يدركون من أنهم يعيشون مهددين دائما بالدمار .

والنصف الثالث بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان اهتمام العالم المتقدم قد بلغ أشده برفع مستوى التعليم الإلزامى وجعله مرحلة توجه فيها العناية الى نمو الطفل فى جميع النواحى العقلية والبدنية والعاطفية والنفسية والاجتماعية ، ومن ثم زادت الرغبة فى الارتفاع بمستوى مدرسى المدارس الأولية ، وأصبح ينظر الى عمل مدرسيها نفس النظرة التى ينظر بها لعمل مدرسى المدارس الثانوية مما أدى ببعض الدول كالولايات المتحدة الأمريكية إلى إنشاء معاهد تعد الفريقين من المعلمين إعدادا متساويا ، فبعد أن أنشئت مدارس النورمال Normal Schools فيها حوالى منتصف القرن العالى حلت محلها كليات المعلمين Teachers Colleges ثم كثر عدد المعاهد التى تعد المعلمين من كليات للفنون الحرة Colleges of Liberal Arts تدرس فيها البيداجوجيا ، وأقسام التربية بالجامعات Education Departments ، ومدارس للتربية بالجامعات Schools of Education (٢٧) . وفى هذه المعاهد دخل أدب الأطفال برامج الدراسة لإعداد المعلم ، وسلك طريقه ليصبح مادة علميه من المقررات الدراسية فى الجامعات وكليات المعلمين (٢٨) ، وحينئذ تولاه العلماء ودرسه المتخصصون دراسة علمية تحدد قواعده ، وترسم مناهجه ، وتبين أجناسه الأدبيه ومقاييسها النقدية ، وتظهر مراحل تطوره ، وتوضح دوره الكبير فى صنع الإنسان وبنائه (٢٩) . وبذلك كله أصبح أدب الأطفال فرعا جديدا لتيار الأدب العام (٣٠) .

وإذا تتبعنا مسيرة أدب الأطفال فى لغتنا العربية نجده ، فى العصور القديمة ، كسائر اللغات يسير متعلقا بالتراث القصصى فى المجتمع العربى ، يحبو فى ركابه ، ويعيش عالة عليه ويتخذ مصادره من قصص الكبار . غير أن الجانب الرسمى من المجتمع لم يلق بالا إلى هذا اللون من الفن القصصى ، ولم يقدره الرواة والمدونون قدره ، ولم يلتفت الأدباء إلى تلبية حاجة الأطفال إلى أدب خاص بهم فينشئون لهم ما يناسبهم من فن طفولى ، ومن أجل ذلك ظلت قصص الأطفال المستمدة والمبسطة من قصص الكبار تتناقلها شفاه الجدات والأمهات والجوارى والمربيات ، وتستودعها ذاكرة الزمان تراثا شعبيا . والذين دونوا تراثنا الأدبى فى أواخر العصر الأموى وفى العصر العباسى وجهوا كل جهودهم إلى أدب الكبار ، ولم يسترع انتباههم من أدب الأطفال إلا ما كان متصلا بأدب الكبار ، أو تلك الأغنيات التى كان الكبار يرقصون بها الصغار ، وأغنيات الترقيص هذه إنما - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك - لا تدخل فى أدب الأطفال ، وذلك لأن معانيها - وهى فوق مستوى الصغار - تصنفها فى أدب الكبار ، فهى أغان عن الطفل وليست أغانى للطفل يمكن أن يغنيها بنفسه فيسعد بنفسها ومعانيها معا .

وفى عهود الجهل والاستبداد والاضمحلال التى مرت ببلادنا العربية ، شبت أجيال من الأطفال العرب يعانون من فقر التجربة وجدب العاطفة وتشرد الخيال، وقد كانت قصصهم التى تسربت إليهم من قصص الكبار تصور ما يقاسيه المجتمع من الخوف والتعذيب والأرهاب والضنك والمسغبة، واستمع الأطفال منها إلى حكايات " أبونا الغول " مع ست الحسن والجمال وقد خطفها إلى قمة الجبل وأسكنها فى كهف مظلم يقوم على خدمته وتأكل من خشاش الأرض ، و" أمنا الغولة " التى تخطف الأطفال وتسجنهم فى السراديب الكئيبة ، وقصص " جنيات البحر " التى تخطف الصيادين ، و " حصان خوى خضير " الجنى المسحور فى شكل حصان يطارد أخت خضير الجميلة ، و " النخلة المسحورة " التى أكلت رب الأسرة ، و " سرور " الطفل الذى قذفت به زوجة أبيه فى التنور وطبخته طعاما للضيفان[٣] . . . وغير ذلك كثير من القصص الشعبية التى كانت تطارد هم أشباحها فى الصحو والمنام ، ولم يكن لدى الكبار غيرها يشبعون بها خيال الأطفال المنهوم وعواطفهم المجدبة وتجاربهم الفقيرة .

ولغتنا العربية ظلت إلى عهد قريب لغة المثقفين من أبنائها ولم تكن لغة المتحدثين فى التعليم ، فكان من العسير على الطفل أن يقرأ للمتعة أو الاستفادة دون مساعدة الكبار ، وعدم الاهتمام بأدب الأطفال فى بلادنا العربية نتيجة طبيعية لعدم اهتمام لغتنا العربية فى تاريخها الطويل بهذا النوع من الأدب ، وطفلنا العربى ظل محروما من الأدب الرفيع المؤلف له خاصة قرونا طويلة . والمعتنون بالدراسات الأدبية يدركون أنه لم يلتفت أحد إلى أدب الأطفال لا تأليفا ولا ترجمة .

ومع نهاية القرن التاسع عشر اجتاز أدب الأطفال فى لغتنا العربية المنعطف الأول الذى استقل به عن أدب الكبار وخرج من عباءته ، وأخذ ينفصل به تدريجيا عن أحضان الآداب الشعبية للكبار ، وبدأ يدخل مرحلة التأليف والأبداع ، وذلك على يد الشاعر أحمد شوقى ، فقد ألف عام ١٨٩٨ أغنيات وقصصا منظومة على ألسنة الطير والحيوان، وكتبها خاصة للأطفال ، فكان أول من أبدع فى اللغة العربية أدبا للصغار العرب مستهدفا تسليتهم وإمتاعهم والترويح عنهم وإدخال السرور على قلوبهم . وهو بذلك يعد الرائد لأدب الأطفال فى لغتنا العربية وأول من استحدث للصغار العرب أدبا يتذوقونه ويسعدون بسماعه أو قراءته .

ويسجل شوقى تجربته فى الكتابة للأطفال فيقول : " وجربت خاطرى فى نظم الحكايات على أسلوب " لافونتين " الشهيرة ، وفى هذه المجموعة شئ من ذلك ، فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث أجتمع بأحداث المصريين وأقرأ

عليهم شيئا منها ، فيفهمون لأول وهلة ، ويأنسون إليه ، ويضحكون من أكثره ، وأنا أستبشر لذلك ، وأتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المستحدثة ، منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم ، والخلاصة أني كنت ولا أزال ألوي في الشعر على كل مطلب ، وأذهب في فضائه الواسع في كل مذهب ، وهنا لا يسعني إلا الثناء على صديقي " خليل مطران " صاحب المنن على الأدب ، والمؤلف بين أسلوب الأفرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب ، والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء ، وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأمنية(٣٢)"

أدرك شوقي ببصيرته النافذة وإحساس الشاعر وذوق المجدد ، بعد أن اطلع على الآداب الفرنسية ورأى فنونها العديدة ، وبعد أن اختلف إلى المسارح الغنائية والتمثيلية في باريس ولندن ، وتردد على " متحف داركور " مقر ندوة الشاعر الرمزي " فرلين "(٣٣) ، أن في الثقافة الغربية جديدا ينبغي أن يجري في أثره أدباء الشرق ، وأن في الآداب العالمية فنونا مستحدثة يجب أن تجد لها مكانا في الأدب العربي ، واقتنع بأنه لابد وأن يجرب موهبته الشعرية في هذه الفنون ليطعم بها الأدب العربي ، ويضيف إليه ما نقص منه ، ويستحدث فيه ما يوائم ذوقه وميوله ، ومن ثم راح طرقا جديدة في الشعر العربي ومنها قصص الأطفال وأغانيهم ، بل أصبح من أماني شوقي وآماله أن يكون للأطفال المصريين العرب أدب مكتوب باللغة العربية في متناول عقولهم يستمتعون به على غرار أدب الأطفال الأوربيين الذي اطلع عليه في فرنسا .

استعان شوقي على تحقيق أمنيته هذه بندائين : وجه أحدهما إلى صديقه الشاعر خليل مطران ليتعاونا في خلق هذا اللون من الأدب للأطفال ، ويلمح قارئ الدعوة التي وجهت إلى خليل مطران إحساس شوقي بمقدرة مطران المتفوقة على خلق هذا اللون الأدبي ، لأنه أصيل في التجديد ، وأكمل في التأليف بين أسلوب الفرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب . وطبيعي ، وشوقي شاعر ، أن يكون ما يؤلفه من أدب للأطفال شعرا ، لكنه كان يود أن يكون للأطفال العرب أدب في صورته الكاملة من شعر ونثر ومن ثم وجه نداءه الثاني إلى سائر الأدباء والشعراء ليساعدوا في خلق أجناسه المتنوعة ، بهذا تتحقق أمنية شوقي كاملة .

لم تلق دعوة شوقي إلى خلق أدب للأطفال الاستجابة المرجوة من خليل مطران ، كذلك لم تجد صدى قويا عند الشعراء والأدباء المعاصرين لشوقي ، فقد شغلتهم الكتابة والنظم للكبار عن عالم الصغار ، وتصيهم الخوف على مجدهم الأدبي في مجتمع ينظر إلى أدب الأطفال آنذاك نظرة أقل ما توصف به أنها

[illegible] ، لم يتصور واحد من الشعراء أو الأدباء ميشال نعمة أمير الشعراء أو يستطيع مجاراته في تعليق أسمه ، ولعل رجع الصدى إلى شوقي قد أثر في نفسه كذلك فترك حمته ، وأصيب بالإحباط ، فلم يعاود الكرة إلى دعوة الشعراء أو الأدباء بتقديم شيء من تلك الحكايات للأطفال ، وكأن شحنة الحماس التي جاء بها من فرنسا قد [illegible] الصالم الذي كان أول من بدأه في أدبنا الحديث (٥٤) كله .

وإذا أضفنا إلى هذا أن أحمد شوقي لم يكن يعلم أن لافونتين الفرنسي "شاعر الأطفال" قد أصدر مجموعة حكاياته للأطفال عام ١٦٦٧ م ، وأن أدب الأطفال في حياته العربي "أحمد شوقي" شاعر كبير كذلك ، بل أمير الشعراء العربية في العصر الحديث ، وكتب أول مجموعة تعليمية للأطفال باللغة العربية تربو على ثلاثين قصة على ألسنة الحيوان والطير نظما ، وقد يشير ذلك إلى أن الشعراء وهم أكثر الناس ثقافة في الرؤى ، وأشدهم حساسية بمن حولهم قادرون على تحسس حاجات الطفل وفهمها ، لأن العلاقة قوية بينهما ، فالشاعر الانسان يكمن في أعماقه طفل صغير ، والشاعر والطفل يسرحها الخيال أكثر مما يشدهما الواقع ، وكلاهما يسعى إلى تغيير الواقع إلى ما يريد ، وكل منهما يجمع في أعطافه قدرا كبيرا من الخيال الجامح ، والحب الدافق ، والعاطفة الغامرة ونقاء السريرة وبراءتها . ومن ثم نجد الشاعر أقرب الناس شبها بالأطفال ، ومن أقدرهم على دخول عالم الطفولة الساحر ، ذلك الذي لا يعتمد الداخلون إليه على العقل وحده ، بل يرتادهم فيه الخيال والحب والعاطفة ، وقدر كبير من الشعور الوجداني ، ونصيب وافر من ذكريات الطفولة وسرحها البريء ، وولع بقيم الحق والخير والجمال . والشعراء بهذا كله حين تسمح بهم أخيلتهم وتقودهم إلى العالم الأسطوري المسحور والمحفور في عقلهم الباطن منذ الطفولة ، يدركون ما يشد عواطف الأطفال ويثير خيالاتهم فيصوغونه - إن أرادوا وتهيأت لهم الظروف - أدبا يمتع الأطفال ويؤنسهم ويدخل السرور على قلوبهم .

أما تأخر ظهور أدب الأطفال حتى عام ١٦٩٧ - ١٨٩٨ ، في لغتنا العربية على الرغم من أصالتها وعمقها التاريخي البعيد ، وحظ أهلها الموفور من الخيال وموهبتهم المبدعة والقادرة على صياغة القصص الجميل ، فذلك لأن طفلنا العربي بعامة ، في مسيرته مع التاريخ ، قد أصابت علاقته بالفن الأدبي سوء

(٢) صعوبة استخدام التعريف البرندسكيبي (الايكولوجي) لتعريف مراكز العمران المدنية في المملكة ، لعدم توافر خرائط لكل مراكز العمران في المملكة وصعوبة بل استحالة زيارة كل مراكز العمران في المملكة لاستكشاف البروفيل الحضاري لهذه المراكز العمرانية .

(٣) لم يتبق لنا سوى التعريف الاداري أو الحجمي التي يمكن الاعتماد عليه في تعريف المدن السعودية ، وبالرغم من ذلك فان تطبيق ذلك لا يخلو من عدة عقبات :-

أ - لم تحدد الدولة أي أساس حجمي تبتدء منه المدينة وما عدا ذلك يكون مراكز قروية ، كذلك لا توجد دراسات سابقة للمدن في مناطق صحراوية مماثلة بحيث يمكن أن يحتذى حذو هذه البحوث ، وبالتالي أن تحديد أساس حجمي سيكون مجازفة من قبل الباحث .

ب - عدم وضوح التعريف الاداري للتقسيمات الادارية في المملكة . ومن المفيد أن نلقي الضوء على التقسيمات الادارية للمملكة ومقابلتها بمثيلاتها في دول أخرى . فتقف المنطقة على أكبر التقسيمات الادارية في المملكة وهي تقابل المحافظة (المديرية) ثم تأتي الامارة لتقابل مركز ، أما الامارة النائية تقابل الناحية ، لذلك فانه يمكن أن نعرف المدن من الناحية الادارية هي عواصم المحافظات (الامارات) ومركز الامارة (عاصمة الامارة الرئيسية - المركز) هي المدن حسب التعريف الاداري فضلا عن المراكز العمرانية التي تسمى بمدينة .

جـ - مما يصعب الوصول الى تعريف واضح للمدن السعودية ، أن المدن الرئيسية التي عرفها التعداد لا تخلو من سكان رحل وهذا يتنافى مع مفهوم المدينة . فمثلا تبلغ نسبة السكان الرحل في الرياض العاصمة (٢٣ر٠ ٪) وتبلغ نسبة السكان الرحل في مدينة بيشة أكثر من ربع السكان (٢٩ر٥٤ ٪) ، وتبلغ نسبة السكان الرحل في عرعر عاصمة منطقة الحدود الشمالية ٢٤ر٧٪ من جملة السكان . وهذه أمثلة صارخة تتنافى مع مفهوم المدينة (الاستقرار المستمر) .